مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/العـدد: 3 (2022)، ص: 19- 36

<<الإنسان كائن أخلاقي متدين مؤتمن >> من منظور طه عبد الرحمن

<< Man is a moral, religious, trustworthy being>> from the perspective of Taha Abdel Rahman

ياسين خليلي [1]، أحمد كعبوش 2

[1] المركز الجامعي نور البشير (البيض)، y.khalili@cu-elbayadh.dz

[2] المركز الجامعي نور البشير (البيض)، sakouma8@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/01 تاريخ القبول: 2022/08/23 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

يعتبر سؤال الأخلاق من بين الأسئلة التي أرقت الفكر العربي المعاصر، فتناولها الباحثين بالدراسة والتحليل، ولعل من أبرز المفكرين الذين وضعوا نظرية أخلاقية متكاملة هو المفكر طه عبد الرحمن، وسنركز في هذه الورقة البحثية على فكرة أسبقية الأخلاق والدين على العقل والاجتماع في الكائن البشري، استنادا للمسؤولية والأمانة الكبرى التي حملها الانسان، حيث دعا طه عبد الرحمن انطلاقا من هذه المؤشرات إلى تأسيس نظرية أخلاقية كونية تراهن الدعايات المغرضة المزيفة حول الأخلاق، وتحقق الغاية من الخلق، اتخذ طه عبد الرحمن في ذلك خاصية الهدم ثم البناء، محاولين الوصول إلى تبيان مؤشرات الكونية في الأخلاق الإسلامية باعتبار أن <<أن الانسان كائن أخلاقي متدين مؤتمن >> وليس <<كائن عقلاني>>.

كلمات مفتاحية: طه عبد الرحمن، الأخلاق الكونية، كائن أخلاقي، كائن مسؤول، الأمانة.

Abstract:

The question of ethics is among the questions that have raised contemporary Arab thought. Researchers have studied and analyzed it. Perhaps one of the most prominent thinkers who

developed an integrated ethical theory is the thinker Taha Abdel Rahman. For the great responsibility and honesty that man has carried, Whereas, based on these indicators, Taha Abdel Rahman called for the establishment of a universal moral theory that bets on false propaganda about morals, and achieves the purpose of creation. Taha Abd al-Rahman took in this the characteristic of demolition and then construction, trying to reach the clarification of the indicators of universality in Islamic morals, considering that "Man is a moral, religious, trustworthy being" and not "a rational being".

Keywords: Taha Abdel Rahman; cosmic morality; a moral being; responsible object; honesty.

المؤلف المرسل: ياسين خليلي.

1. مقدمة:

اعلم أن الناظر للواقع العربي والإسلامي يجد نوعا من الرتابة والتقليد، كالرجل الأعمى الذي يستند إلى عصا الغرب، يعيش تخلفا حادا بعدما كانت الحضارة الإسلامية قبلة العالم في جميع الميادين، الأمر الذي تفطن إليه العديد من المفكرين والفلاسفة سائلين أنفسهم – لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟- فاختلفت إجاباتهم ووجهات نظرهم، كل على حسب إيديولوجيته ونزعته الفكرية التي تشبع بها، فكانت إجاباتهم تتأرجح بين التراث والتقدم، ناظرين للتراث كهوية وللالتحاق بالركب الحضاري الغربي كضرورة، كانت أغلب أفكارهم رهينة كتبهم، كالذي كان يعيش في زنزانة ردحا من الزمن ثم حُرر، لينبهر بالواقع الحضاري فيخوض غماره وينبهر به.

لكن بالمقابل نجد شخصيات ومفكرين تسلحوا بهويتهم ونظروا لهذا التحضر نظرة أخرى، ولعل أبرزهم المفكر المغربي الموسوعي- طه عبد الرحمن- الذي لم يغره بهرج الحضارة وأريجها ناظرا لها نظرة ناقداً متفحصا، مستندا في

ذلك إلى المثل القائل« بدل أن تلعن الظلام، أوقد شمعة تنير لك الطريق»، هكذا كان رأيه في اعطاء بدائل أصيلة متأصلة متجذرة في الدين الإسلامي بالإضافة إلى مفاهيم إسلامية دقيقة تضاهي المفاهيم المستعارة من الغرب.

فالهدف من هذه الورقة البحثية هو تبيان مكانة الأخلاق الإسلامية عند طه عبد الرحمن،بعد تعيين الداء ووصف الدواء، اتخذ في ذلك خاصية الهدم ثم البناء إذ "أنه لا بناء مرصوصا بغير نقد يتأسس عليه" (طه، 2016، صفحة 549)، هدم الشعارات التي نادت بها الأخلاق العالمية الغربية والتي تحمل بذور فنائها ، ثم التأصيل لنظرية أخلاقية كونية عالمية تحمل بذور بقائها. ليُبين أن الانسان كائن أخلاقي متدين في الأصل وليس كائن عقلاني واجتماعي كما تشدق الغرب، فعقلانية واجتماعية الانسان وغيرها هي فروع ناتجة عن التخلق والتدين، " لأنه لا أخلاق بدون غيبيات، كما أنه لا دين بدون غيبيات" (طه، 2000، صفحة 25). ومن هذا المنطلق ما عسانا إلا أن نطرح السؤال التالي: ما هي مؤشرات الفناء لدى الأخلاق العالمية الغربية؟ وما هي مؤشرات البقاء لدى الأخلاق الكونية الإسلامية عند طه عبد الرحمن؟ وما هي معالم أخلاقية ودينية الانسان؟ وفيما تتمثل عظمته في حمل الأمانة والمسؤولية الكبرى التي على عاتقه؟

2. الأخلاق العالمية بين الوهم والحقيقة

1.2 الأخلاق العالمية الوهمية:

لقد انطلق عبد الرحمن في دعوته إلى ضرورة تأسيس أخلاق إسلامية عالمية واعتبارها أخلاق كونية من نقده للأخلاق السائدة التي يتشدق بها الغرب والتي تحمل بذور فنائها في طياتها ومن معالم هذه بذور الأخلاق الزائفة:

أ.الدعوة الغربية إلى تأسيس أخلاق عالمية: وهي دعوة غربية تحاول طمس الهوية الإسلامية وتزعزع التمكن الديني. فلقد عمل الغرب على ضرورة تأسيس أخلاق عالمية موحدة وخصصوا لذلك إعلانا، وهذا ما حزَّ في نفسية طه عبد الرحمن ولم

يتوانى في الإسراع إلى تبيان زيف هذا السم العابر للقارات. وقد عنون الغرب هذا الإعلان بعنوان<< إعلان من أجل أخلاق عالمية>>. الذي أقره << برلمان الأديان>> في مؤتمره الثاني في شيكاغو سنة 1993. "لأنه قد حظي بتوقيع عدد كبير من الشخصيات المرموقة التي تنتمي إلى مختلف الأديان" (طه، 2012، صفحة 115). كما اعتبر طه أن هذا الإعلان لا يتوفر على مقومات الأخلاق العالمية، ولا يصلح للعالم لأن أسسه غير مؤسسة على ضوابط متينة ولعل أبرزها عند طه عبد الرحمن هو الإيمان والعمل الديني" فالعنصران المكونان للدين هما<<الإيمان>> و<<العمل>> وقع تحييدهما في بناء هذه الأخلاق" (طه، 2012، صفحة 123).

ب. سيادة حضارة الفكر والعلم وإهمال الأخلاق والدين: إن العصر الحالي هو عصر العلم والتطور التكنولوجي وما صاحبه من قيم الحداثة من عولمة وعلمانية وتقنية وتقديس للعقل جعلت الانسان المعاصر ينبهر بهذه القيم ويحذو حذوها ناظرا لها أنها المبتغى الأساسي والمشرب الأوحد الذي يروي عطشه. مع أن هذه الشعارات التي يتشدق بها الغرب تدعوا إلى الحرية والتسلط والظلم وإهمال الأخلاق وجعل الدين عرض الحائط. فالهدف من هذا هو إبعاد المسلمين عن دينهم، والأشكال المتعددة هي: الإلحاد والتنصير والتمييع الديني وتعديل المناهج الإسلامية وفق ما يرونه هم لا المسلمون مناسباً وإلهاء المسلمين عن دينهم وتكريس انقسام المسلمين وقمع ثوراتهم.

ت.الفراغ الروحي وظهور العولمة: يعيش المسلمين حالياً فراغا روحيا خطيرا ساعدت في تكوينه قيم الحداثة وتحديات العولمة التي تقرر مرجعيات المستقبل، حيث يشعرون بالإسلام كحالة ذاتية طقوسية يمارسونها يومياً عبادات وتغيب عنها عوامل الوعي والإنسجامية الروحية التكاملية، أصبح الإسلام إسلام مظاهر وشعارات لا قيم ولا أخلاق وممارسات دينية، حيث أصبح الدين في نظر الكثير

مجرد طقوس مقدسة تتلاحق فصولها على شكل صور غامضة ومبهمة، وكليات لا يعرف مداها ومعناها في حركة التطبيق.

ث.الحاجة الماسة إلى تأسيس نظام أخلاقي عالمي جديد: إن الدين الإسلامي يحمل في طياته قيم أخلاقية متكاملة تؤسس للهوية وتحافظ عليها من الضياع، كما ترتقي هذه الأخلاق إلى العالمية، وهذا ما جعل طه يتساءل عن سبب عدم إقدام المفكرين الإسلاميين على تجديد الخطاب الأخلاقي الإسلامي والإشادة به، ثم الرقي به إلى مرتبة العالمية. " الغياب الكلي لمساعي تجديد الخطاب الأخلاقي الإسلامي بما يجعل هذه الأخلاق تضاهي الفلسفات الأخلاقية الغربية الحديثة والمعاصرة" (طه، 2000، الصفحات 145-146).

ج.السلطة الكلية للعلم في سدل منهجه التجريبي على الطبيعة والإنسان: وهذا ما ولد انتهاك حُرمة الدين والأخلاق من خلال التجارب العديدة على الانسان، كعملية الاستنساخ والإخصاب الاصطناعي وخاصة ما يعرف" بالهندسة الوراثية التي أفرزت إشكاليات أخلاقية ودينية مرعبة، دخلت مجال القانون وأروقة البرلمان ومكاتب السياسيين، حيث وجدوا أنفسهم أمام معضلة أخلاقية حادة ترتبط بمفاهيم عديدة مثل الضمير والمسؤولية، والوجود الإنساني، وقُدُسية الحياة، وكرامة الانسان" (ناهدة، 1993، صفحة 56).

ح.سيادة الأخلاق الغربية : لقد أسدل الغرب ستاره على العالم وجعل نظره محدود منبهر في الثقافة الغربية التي دخلت المنازل عن طريق الدعاية المغرضة والتكنولوجيا السامة التي تدعو إلى القطيعة مع الدين"رافضا فكرة الإله بسبب صراعه المرير مع الكنيسة ودعاياتها المظللة، وفي ضوء هذا المناخ الإلحادي، المشتهر بالدين، ماتت الشخصية الغيبية التقليدية ذات الولاء لمطلق أخلاقي ثابت، وحلت محلها الشخصية المتحررة من أية قيم" (المسيري، 2010، صفحة 36).

2.2 الأخلاق العالمية الحقيقية:

بعد تتبع طه عبد الرحمن لمكامن الضعف في الأخلاق الغربية، سعى جاهدا إلى تأسيس نظرية أخلاقية دينية متكاملة حقيقية ومن معالم هذه الأخلاق :

أ.أخلاق كونية عالمية: كونها تشتمل على معالم السلام العالمي والكوني، لأنها نابعة من سلطة قُدسية مُنزلة. فالإيمان في نظر طه يعقل بالنظر في الآيات، وفي الأصل ويسمى تفكراً، بينما العلم يعقل بالنظر في الظواهر، وفي الفرع ويسمى تفكيراً. لذا نجد أهل الإيمان من رُسل وأنبياء سبقوا أهل التفكير من علماء ومفكرين، في الدعوة إلى الوحدة والسلام الكوني، وعليه"إن اتفاق الأفراد الذي يشعر بوجود الكونية، يجوز أن يتوسل فيه بالإيمان، كما يجوز أن يتوسل فيه بالفكر، فهذا التاريخ يخبرنا بأن أهل الإيمان سبقوا أهل الفكر في الدعوة إلى توحد البشر" (طه، 2005، صفحة 32).

ب.الأخلاق الإسلامية أخلاق قدسية: كونها مرتبطة بالإيمان والعقيدة والعمل الصالح وتدعو إلى الوحدة والاتصال، إذ" المُلاحظ أن عقل ما قبل الحداثة اختص بكونه يصل الأشياء بعضها ببعض، طالبا تركيبها في مزيج شامل أو تأليفها في وحدة كاملة" (طه، 2014، صفحة 27).

ت.أخلاق تفكر وتدبر لا أخلاق تفكير: كون أن الإسلام يدعو إلى التدبر والتفكر، والنظر في الآيات لا في الظواهر، كما هو الشأن بالنسبة للأخلاق الغربية. فالظواهر في نظر المؤمن هي آيات تستدعي منا طلب الحكمة من وجودها، والآية في اصطلاح طه هي" الظاهرة منظوراً إليها من جهة المعنى الذي يزدوج بأوصافها الخارجية، دالا على الحكمة من وجودها" (طه، 2005، صفحة 19).

ث.أخلاق مُنزلة صالحة لكل زمان ومكان: لأنها جاءت من رب العباد وهو العالم بما يصلح لدنيا عباده وآخرتهم، فهي أخلاق تعتمد في مرجعيتها على القرآن الكريم

والسنة النبوية المطهرة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا يمشي على الأرض كما أنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق.

ج.أخلاق تسامح وإيمان واعتقاد: وهي قيم الدين الإسلامي وهي أكثر شمولاً وعالمية للمعايير التي يجسدها توحد الأمة والعالم، والرجوع إلى الدين كفيل بتوجيه الأخلاق العالمية. وذلك مصداقا لقوله تعالى{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}(المائدة،48).

ح.أخلاق حوارية تعتمد على مبدأ الشورى: كونها تحترم الإرادة الإنسانية كما تدفع بالإنسان إلى اكتشاف الرأي الأفضل بغية التكامل. لأن البشرية قائمة على التعدد والتنوع، مما يجعل الحوار ضرورة مُلحة للحياة. قال الله تعالى مصداقا لذلك:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات،13). كما أنها أخلاق قائمة على الاختلاف في التفكير والتوجهات والاعتقادات وهو سنة فُطرت البشرية عليها. قال الله تعالى مصداقا لذلك:{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } (هود، 118-119).

خ.أخلاق تعتمد على الإخلاص والإخاء: إذ أن التواصل مع الآخر عبادة لذا أن الانسان المسلم يحرص على حسن الصلة مع غيره، وهذا ما يحقق نتيجتين اعتبرهما طه ركنين أساسيين لتوسع مفهوم المواطنة. "أما الركن الأول فهو" دوام التجرد من أسباب الظلم" وأما الركن الثاني فهو" دوام التوجه إلى المتجلي بالحق" (طه، 2006، صفحة 230).

3. الانسان كائن أخلاقي متدين

1.3 دينية الأخلاق:

يؤكد طه عبد الرحمن على أن المرجعية الأساسية للأخلاق هي الدين لأن المجال الديني يجمع بين العنصر الإنساني المعنوي والغيبي إذ " لا أخلاق بدون غيبيات، كما أنه لا دين بدون غيبيات" (طه، 2000، صفحة 25). فالأخلاق في نظر طه نابعة من الدين وترتبط ارتباطا وثيقا به، إذ دعا الإسلام إلى التحلي بالفضائل وبمكارم الأخلاق والتخلي عن الرذائل وسيء الأخلاق، فالأخلاق الإسلامية هي مجموعة من المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، والتي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل والأتم. ومن الآيات التي تبين دينية القيم الأخلاقية قوله سبحانه وتعالى:{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف،199). وقوله جل شأنه"{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ} (البقرة،83). وقال كذلك:{ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱابتغاء مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء، 114). ومن هذا المنطلق يتضح لنا أن الله خلق الانسان وجعل له ضوابط يسير وفقها ويكون الدين مرجعيته فالإنسان كائن أخلاقي متدين. "أنه لا يوجد إنسان بغير أخلاق كما لا توجد أخلاق بغير دين، وانه لا يوجد إنسان بغير دين" (الشيخ، 2007، صفحة 316).

إن الأخلاق مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين، إذ دعا الإسلام إلى التحلي بالفضائل وبمكارم الأخلاق والتخلي عن الرذائل وسيء الأخلاق وقد وردت آيات كثيرة تبين الصفة الدينية للأخلاق من خلاق الأوامر والنواهي الموجودة في القران

الكريم منها: قوله تعالى:{ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاء مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء،114).وقال سبحانه وتعالى«وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ} (البقرة، 83).

2.3 أولوية الأخلاق على العقل:

يُعرف الانسان بأخلاقه وفضائله، وبه يرتقي في سلم الحضارة والقيم، ولعل الأخلاق التي يجب التحلي بها هي أخلاق الإسلام كونها أخلاق عالمية كونية ومن مؤشرات أولوية الأخلاق على العقل: أ.مؤشر الفطرة: يولد الانسان على الفطرة والسجية الصحيحة والسليمة من القيم الأخلاقية، فيميل بفطرته للصفات الخلقية الحسنة التي توصف بالعدل والحب والاحترام وغيرها من الصفات الحميدة، وينفر من الصفات الذميمة عندما يشعر أنها تتناقض مع فطرته، وهذا ما أكدته السنة النبوية الشريفة كما قال صلى الله عليه وسلم أنه ما مِن مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ، أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ . وقال الله تعالى في محكم تنزيله عن الفطرة الصحيحة التي جُبل عليها الانسان : {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} (الروم، 30).

ب.مؤشر الأسبقية: يؤكد طه عبد الرحمن على أن الأخلاق متقدمة على العقل، كونها صفة مميزة للإنسان وضرورية له، وهي الصفة التي تميزه عن بقية الكائنات، وهذا ما يسميه طه عبد الرحمن بالأخلاقية: "فالأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الانسان مستقلا عن أفق البهيمة، فلا مراء في أن البهيمة لا تسعى في الصلاح إلى سلوكها، كما تسعى إلى رزقها مستعملة في ذلك عقلها فالأخلاقية هي الأصل الذي تتفرع عليه كل صفات الانسان من حيث هو كذلك، والعقلانية التي تستحق

أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي" (طه، 2000، صفحة 14).

4. الانسان كائن مسؤول

1.4 عظمة الانسان في مسؤوليته وحمله للأمانة:

لقد انطلق طه عبد الرحمن من نقده للأفكار السائدة في عصره حول حقيقة العقل، وحقيقة الأخلاق، رافضا الشعارات التي يتشدق بها الغرب ومن سار على نهجهم من مفكري العرب، وداعيا إلى تأسيس نظرية متكاملة ودقيقة تبين عظمة الانسان كونه خليفة الله في الأرض، ومسول لأنه كُلف بأمانة وهذه النظرية قد أطلق عليها اسم الائتمانية ويعرفها بقوله: " إن تمتع الانسان بحرية الاختيار منذ وجوده في العالم الغيبي، يجعله يرجع العمل التعبدي والعمل التدبيري في العالم المرئي إلى أصل واحد هو الائتمان الإلهي" (طه، 2012، صفحة 449).

ومن هذا التعريف يتضح أن الانسان مسول حمل الأمانة بفطرته وسجيته السليمة، وبإرادته الحرة"فكذلك يستلزم تحصيل الشعور بالمسؤولية، ولا يخفى أن شعور المتدين بالمسؤولية هو أن يعلم أن اختياره تترتب عليه عواقب مخصوصة مُبدياً كامل استعداده لتحملها" (طه، 2012، صفحة 453).

ولعل من الضوابط والمؤشرات التي أهلت الانسان للمهمة العظمى وحمل الأمانة تتجلى في الخصائص التالية:

أ.الانسان خيّر بطبعه: الانسان كائن أخلاقي جُبل على الخير والفطرة الصحيحة، ومنحه الله العقل للاختيار، فالاختيار يقترن بالقيم الخلقية من خير وحُسن، وقول صادق وصلاح. فما دام الانسان مكلف فهو حر، وما دام حر فهو مُحب للخير" الاختيارات المتعلقة بالعمل الديني تأتي بالخير من جهتين اثنتين: إحداهما: الجهة البشرية، فالمؤمن يختار الامتثال للأوامر المنزلة لأن عقله الموسع يقيم له الدليل

القاطع على أن هذه الأوامر أصلح لحياته المرئية من القوانين الوضعية، إذ ترتقي بأخلاقه بما لا ترتقي بها هذه القوانين، وإنما أيضا أنفع لحياته الغيبية التي سيسقطها واضعو هذه القوانين من اعتبارهم، إذ أنها ترتقي بروحانيته بما يخطر على بال هؤلاء الوضعيين" (طه، 2012، صفحة 452). وتقتضي خيرية الانسان الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى وللخطاب الشرعي عامة لأن الانسان يعلم أن الله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده، وأوامره كلها خير وصلاح للبشرية.

ب.الانسان يُعرف بمسؤوليته وحمله للأمانة: إذا كانت جميع الكائنات ميسرة لما خُلقت له، ولا تغيّر في ما فُطرت عليه شيئا، فإن الانسان هو الكائن الوحيد المخيّر، والذي يملك الإرادة، لكن إرادته هذه مرهونة بالمسؤولية التي نقع على عاتقه، وبالخيرية التي فُطر عليها كما سلف الذكر في الخاصية الأولى. فقد حدد الله سبحانه وتعالى للإنسان منذ بداية الخلق مسؤوليته قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لق قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة،30)، كما بيّن له طبيعة هذه المسؤولية وشروطها والتي تتجلى في إعمار الأرض وفقا لإرادة الله الذي استخلفه، قال الله تعالى:{ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (الأحزاب، 72). فالأمانة هي التكليف مع القدرة ، وترتب الثواب على أدائها والعقاب على تضيعها لابد له من حريّة واختيار. "التكليف الذي يفترض وجود الاستطاعة يجعل المكلف حتما مسئولا عن اختياره، فقد يختار أن يفعل ما كُلف به، أو يختار أن يتركه، بحيث يصير مستحقا للجزاء ثواباً أو عقابا، إن في العالم المرئي أو في العالم الغيبي" (طه، 2012، صفحة 453). ومن هنا كان الإنسان أصلحَ المخلوقات للعيش على الأرض، ومتناسِبًا مع ما فيها من ماديّات

ومعنويات مُتقابلة بالتضاد أو التناقض. وهذا تكريم من الله للإنسان حيث اختاره لحمل هذه الأمانة.

إن الكون أجمع مصمم على أساس المسؤولية، فما على الانسان إلا الامتثال للخطاب الشرعي لكي تتحقق مسؤوليته، فلا تكليف بدون حرية وقدرة على الفعل أو الترك، وهذه القدرة تقتضي السؤال عن الأداء والالتزام"كما أن الاختيار يستلزم الخير الذي يُتوصل إليه بالعقل، فكذلك يستلزم تحصيل الشعور بالمسؤولية" (الفاروقي، 2014، صفحة 49).

فالمسؤولية تنصب على الإنسان أولا، بدون التساؤل عن شروطها، لأن الشخص يعتبر العلة الأولى في القضية؛ ثم شروطُها . كالحرية مثلا، والتمييز بين الخير والشر والإرادة . تأتي لإنصاف العدل وتبرير الحكم.لأن المسؤولية في الإسلام تضامنية ومتكاملة، فالبشر مسؤولون عن أفعالهم اتجاه أنفسهم واتجاه غيرهم، وإذا التزم كل إنسان بمسؤوليته الفردية والاجتماعية حصل السلام والأمن، كما أن هذه المسؤولية تتخذ شكلين:

- مسؤوليات عامة: تتجلى في صورة الواجب الكفائي، إذا قام بها البعض سقطت على الآخر، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- مسؤولية فردية: تتجلى في صورة الواجب العيني وهي فرض على كل مسلم ومسلمة، كالصلاة والصوم مثلا، فكل مسلم مسؤول عنها"من منطلق المسؤولية فإن العقل والضمير المسلم لا يقبل إلا أن يسعى بالحق والعدل والخير والإعمار، وهذا المنطلق هو ضمان استقامة الفكر الإسلامي الصحيح" (أبوسليمان، 1995، صفحة 24).

2.4 الإنسان كائن القيم لأنه حضين المسؤولية وراعيها:

لقد اعتبر طه عبد الرحمن أن مسؤولية الانسان كفيلة بأن تجعل منه كائن أخلاقي متدين، لأنها مسؤولية تجعل الدين نصب أعين الانسان في كل حركة

يقدم عليها في هذا الوجود، وهذا ما أهل الانسان إلى حمل الأمانة، لذا بادر طه إلى وضع مبادئ لهذه المسؤولية الدينية والأخلاقية والتي يسميها الائتمانية ومن مبادئها:

أ.مبدأ الشاهدية: ويقتضي هذا المبدأ أن الحكم الإلهي الشهودي على الأفعال هو الأصل في الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى"إن الشاهدية الإلهية أصل التخلق" (طه، 2014، صفحة 92)، بمعنى أن الانسان عليه أن يعلم علم اليقين أن الله مطلع على سريرته الظاهرة الباطنة، ويلزم من هذا الامتثال للأوامر واجتناب النواهي لان الله مطلع على كل صغيرة وكبيرة وشاهد عليها، لذا علينا أن نستحضر خاصية الخوف من العقاب حتى نتجنب المعاصي أو بما يسمى ضبط النفس لان"استحياك هو أن تخاف أن يشهدك من تدعي حبه حيث نهاك، وأن لا يشهدك حيث أمرك" (طه، 2012، صفحة 276).

فما دام الله سبحانه وتعالى يشهد عمل الانسان ظاهره وباطنه ولا تُخفى عليه خافية، فيكون تخلق الانسان متحقق بحصول هذه الشهادة الإلهية، وقد استشهد طه عبد الرحمن بقوله تعالى:{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ادم مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ} (الأعرف، 172-174). فالله سبحانه وتعالى خلق آدم، أخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله واستخرج ذريته، وأخذ ميثاقهم، وكتب آجالهم، وأرزاقهم وأشهدهم على أنفسهم، كما أشهد بعضهم على بعض وهو عين الشهادة.

ب.مبدأ الآياتية: ويقتضي هذا المبدأ رد الظواهر إلى الآيات، فالعالم آيات وليس ظواهر كما يتشدق بها الغرب، فعقل الإيمان ينظر في الآيات ويُسمى تفكراً وتدبيراً لأن"اتصال الدين بالعالم عبارة عن اتصال آيات لا اتصال ظواهر" (طه، 2014، صفحة 95).

من هذا المنطلق نرى أن علاقة الانسان بالعالم وبالدين ترتبط ارتباطا وثيقا بالأخلاق، فالنظر في الآيات يصل عالم الملكوت وعالم المعاني الروحية والقيم الأخلاقية بعالم الظواهر" فإن الأصل في وجود (الظواهر) هو المعاني أو القيم (الآياتية)، الدالة على ما وراءها من المعاني الإيمانية" (طه، 2018، الصفحات 45-46).

ت.مبدأ الايداعية: ويقتضي هذا المبدأ أن الأشياء جميعها تنسب إلى خالقها وشاهدها نسبة مطلقة ، فهي مجرد ودائع في يد الانسان لا غير وهذا ما عبر عنه طه بقوله" الأشياء ودائع عند الانسان" (طه، 2014، صفحة 98). فالأشياء التي في يد الانسان تنسب إليه نسبة نفسية، وإنما تنسب إلى خالقها نسبة روحية، وإذا التزم الانسان بهذا المبدأ فإن الله تعالى ينسب إلينا هذه الأشياء فعلا"إن كون الفطرة تحقق الوصل بين الخلق والأمر الإلهيين ليؤكد أنه لا وجود إلا وهو مستمد من الخلق إبداعا وإحداثا" (الكور، 2017، صفحة 102).

ويهدف هذا المبدأ إلى تغيير علاقتنا بالأشياء المملوكة من صورة الامتلاك إلى صورة الائتمان ومراعاة الله في ما رزقنا، وأننا مستخلفين في هذا الرزق، ونعتقد إيقانا أن المال مال الله وهو وديعة في أيدينا.

ث.مبدأ الفطرة:ويقتضي هذا المبدأ أن الأخلاق فطرية جُبل الانسان على السجية الصحيحة والسليمة كما تقدم الذكر عنها في المطلب الثاني، وهذا يعني أنها مصدرها غيبي متعالي لأن" الأخلاق مأخوذة من الفطرة" (طه، 2014، صفحة 100)، فالقيم الأخلاقية هي تجسيد للإيمان في السلوك، فالفطرة في نظر طه هي الدين الإسلامي والأخلاق متأصلة في الفطرة وكمال الفطرة هو الخلق الإلهي للعالم، مصداقا لقوله تعالى{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَالِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم، 30).

ج.مبدأ الجمعية: ويقتضي هذا المبدأ الجمع بين المتقابلات وأن هناك علاقة آياتية بين الدين والأخلاق"أن الدين بجمعيته أخلاق" (طه، 2014، صفحة 103). ومن هذا المنطلق يتضح لنا أن فطرية الأخلاق تستوجب تسديد الدين لها وتوجيهها بصفة كلية ومطلقة، فعلاقة الدين بالعلم هي علاقة آيات لا ظواهر، فأسماء الصفات الإلهية المُنزلة تحمل قيما ومعاني كلما تعرفنا عليها ازداد تخلقنا وأيماننا لأن " التخلق على شرطه الائتماني، أن تقربا أو تجردا، لا يحصل إلا بالأسماء الإلهية وفيها، فأعلم أن للأسماء الإلهية خصوصية ليست بغيرها، وهي أنها المصدر الذي تخذ منها القيم أخذا مباشرا، أي استبصارا، كما أنها هي المورد الذي ترجع إليه" (طه، 2017، صفحة 71).

إن الأسماء الإلهية كاملة مطلقة منزهة عن كل عيب، والتحلي بأوامر الخلق وبصفاته من شروط بلوغ أخلاق النسبي إلى المطلق، كون أن هذه الأوامر مرجعية دينية متكاملة.

5. خاتمة:

وصفوة القول أن طه عبد الرحمن حاول أن يُقدم تصورا دقيقا للإنسان بوصفه كائناً أخلاقياً متديناً مسئولا مؤهل لحمل الأمانة، رافضا الادعاءات الغربية التي تجعل من الانسان كائنا عقلانياً مدنياً، فهذه الصفات هي صفات ثانوية تابعة للتخلق والتدين، محاولا بذلك التأصيل لنظرية أخلاقية كونية متكاملة، يتجاوز فيها الانسان صفة الأبتر إلى صفة الكوثر.

ومن هذا المنطلق يدعو طه عبد الرحمن إلى التحلي بالأخلاق الكونية كونها أخلاق مرتبطة بالدين، والدين الإسلامي جاء للعالمين كافة، وصالح لكل زمان ومكان كونه كلام الخالق، تتسم فيه القيم المطلقة، وما عسى الانسان إلا الامتثال لهذه الأوامر الموجودة فيه، حتى تتحقق ذاته ويؤدي الأمانة والمسؤولية التي على

عاتقه، وهذا ما جعل نظرية طه عبد الرحمن الأخلاقية متأصلة، ومتراصة المعالم، كونها تستند إلى مرجعية دينية.

لذا ندعو من هذا المنبر الدارسين للفكر العربي، والقائمين على شؤون التربية والتعليم في الوطن العربي والإسلامي، أن يؤصلوا لهذه النظرية الأخلاقية، ويجعلوا منها مناهج وكتب مدرسية، تعين الدارسين على اتخاذ منهج قويم في الأخلاق، كما تجعلهم يكتشفوا زيف بعض الشعارات الأخلاقية المزيفة، والمفاهيم الغربية التي بتنا نعتبرها من صميم الإسلام.

6.قائمة المراجع

1) إسماعيل راجي الفاروقي. (2014). *التوحيد مضامينه على الفكر والحياة*. القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

2) البقصمي ناهدة. (1993). *الهندسة الوراثية والأخلاق*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون واللآداب،عالم المعرفة .

3) طه عبد الرحمن. (2016). *شرود ما بعد الدهرانية: النقد الائتماني للخروج من الأخلاق* . بيروت-لبنان: المؤسسة العربية للفكر والابداع.

4) عبد الجليل الكور. (2017). *مفهوم الفطرة عند طه عبد الرحمن* (المجلد الأولى). بيروت- لبنان: المؤسسة العربية للنشر والابداع.

5) عبد الحميد أبوسليمان. (1995). *قضية المنهجية في الفكر الاسلامي* (المجلد الأولى). الرياض: الدار العالمية للكتاب الاسلامي للنشر والتوزيع.

6) عبد الرحمن طه. (2000). *سؤال الأخلاق مساهمة في النقد للحداثة العربية*. لبنان: المركز الثقافي العربي.

7) عبد الرحمن طه. (2005). *الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري* (المجلد الأولى). الدار البيضاء- المغرب: المركز الثقافي العربي.

8) عبد الرحمن طه. (2005). *فقه الفلسفة - القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأثيل*. الدار البيضاء- المغرب: المركز الثقافي العربي .

9) عبد الرحمن طه. (2006). *روح الحداثة مدخل الى تأسيس الحداثة الاسلامية* (المجلد الأولى). الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي.

10) عبد الرحمن طه. (2006). *روح الحداثة مدخل الى تأسيس الحداثة الاسلامية* (المجلد الأولى). الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي.

11) عبد الرحمن طه. (2012). *روح الدين من ضيق العلمانية الى سعة الائتمانية* (المجلد الثانية). الدار البيضاء- المغرب: المركز الثقافي العربي.

12) عبد الرحمن طه. (2012). *سؤال العمل بحث عن الأصول العملية عن الفكر والعلم*. الدار البيضاء- المغرب: المركز الثقافي العربي.

13) عبد الرحمن طه. (2014). *بؤس الدهرنية النقد الائتماني لفصل الأخلاق عن الدين*. بيروت- لبنان: الشبكة العربية للأبحاث.

14) عبد الرحمن طه. (2016). *شرود ما بعد الدهرانية: النقد الائتماني للخروج من الأخلاق*. بيروت- لبنان: المؤسسة العربية للفكر والابداع.

15) عبد الرحمن طه. (2017). *دين الحياء من الفقه الائتماري الى الفقه الائتماني* (المجلد الأولى). بيروت- لبنان: المؤسسة العربية للفكر والابداع.

16) عبد الرحمن طه. (2018). *ثغور المرابطة مقاربة ائتمانية لصراعات الأمة الحالية* (المجلد الأولى). الرباط- المغرب: مركز مغارب للدراسات في الاجتماع الانساني.

17) عبد الوهاب المسيري. (2010). *الفلسفة المادية وتفكيك الانسان*. بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر.

18) محمد الشيخ. (2007). *رهانات الحداثة*. بيروت- لبنان: دار الهادي للطباعة والنشر.